عُمَر مَاجِد السَّنَوي

الرُّصافِيُّ .. لَهُ .. لا عَلَيه ..



مَعْرُوف الرُّصَافِي





العدد الثامن السنة الثامنة آذار ٢٠٢٤م

فلسطين

في هذا العدد

- مقومات الصمود في خطاب المقاومة
- الدليل المبسط للأوزان الشعرية
- إعادة تشكيل الذاكرة العراقية
- المرأة والمواقع القيادية

مجلة أنشئت عام ١٩٩٨م صادرة عن المجمع العلمي العراقي

أوراق مجمعية

شروط النشر

- لا تتجاوز المقالات والدراسات عشر صفحات حجم A4
- مراعاة سلامة اللغة العربية في كتابة المقالات والدراسات
- توثيق المقالة أو الدراسة توثيقاً علمياً
- يزود الباحث من خارج العراق بعدد رقمي من المجلة مع كتاب شكر من السيد رئيس المجمع العلمي العراقي
- ترسل المقالات على البريد الرقمي الخاص بالمجلة:

awraqmajma@iraqacademy.iq

awraqmajma@gmail.com

من أهداف المجمع العلمي

- إيجاد مرجعية علميّة في حقل الاختصاص
- المحافظة على سلامة اللغة العربيّة والكردية والتركمانية والسريانية وغيرها، والعمل على تنميتها ووفائها بمطالب العلوم والآداب والفنون
- وضع معجمات وموسوعات علميّة ولغوية
- تحقيق الكتب والوثائق العلميّة القديمة ونشرها
- إحياء الإرث العراقي والعربي والإسلامي في العلوم والآداب والفنون والعناية بدراسة تأريخ العراق وحضارته وتراثه
- التعاون مع الجامعات والمؤسسات العلميّة داخل العراق وخارجه وإقامة روابط علميّة معها



استفتاءات مجمعية

في الأدب وقضايا العربية

الترجمة

عرض كتاب

ملف العدد : فلسطين الجرح و الأمل

المرأة في عيدها

في العلوم الانسانية

شؤون الفكر والدين

دراسات جامعية

نشاطات مجمعيّة

الرصافي .. له لا عليه



عمر ماجد السنوي

تحلّ علينا الذكرى التاسعة والسبعون لرحيل الشاعر العراقي الأديب المفكّر: معروف عبد الغني الرصافي، الذي وافته المنية ليلة الجمعة، الموافق للسادس عشر من آذار عام ١٩٤٥م، ببيته في الأعظمية ببغداد. والرصافي هو الرصافي شهرةً ومكانةً، وسيرته قد دوّنها بنفسه كما دوّنها بعضُ مَن عاصَره.



لكن ثمّة جوانب ثلاثة من سيرة هذا العلَم، خاض فيها بعض الناس بغير حق، الجانب الأول يتعلق بحياته الشخصية، والآخَر بمواقفه السياسية، والثالث بعقيدته الدينية.

وإنّ المنهج العلمي والأخلاقي مُضافًا إلى المنهج الإسلامي، لَيُحتِّم علينا أن تكون أحاديثنا عن أيّ شخص أحاديثَ متَّسمة بالصدق، ولا سيما إن كانت تلك الأحاديث تحمل اتهامًا وطعنًا في ذلك الشخص، وتُسبِّب له التجريح والتسقيط.

وليس المطلوب الصدق فحسب، بل أن يكون معه ما يثبِتُه؛ لأنّ المَقام مَقام شهادة، وإلا كان المخبِر الصادق محاسَبًا إن لم يأتِ بالدليل والشاهد، فتنعكس الأمور عليه، فيكون هو المُلام الجاني.

كما يجب في المُخبر الصادق الّذي يحمل معه دليلَه أنْ يكون لديه شيء آخَر، وهو: الحكمة والتعقُّل، فيَعرف سياق ذلك الخبر الذي يُخبِر به، فهو إن وضعَه في سياقه قد لا يكون مما يؤاخَذ عليه ذلك الشخص، كأن يقول قائلٌ -على سبيل المثال-: رأيتُ فلانًا يقتل علانًا، وجاء بالشهود والإثباتات وربما الاعترافات، ولكنه لم يضع الخبر في سياقه، ليُعرَف أنَّ القاتل كان يدافع عن نفسه -مثلًا-.

ومن الحكمة الّتي يجب أن يتوفَّر عليها المخبِر: معرفة المصلحة والمفسدة من ذِكر هذه الأخبار وإشاعتها.

هذا تأصيل يجب على مجتمع العلماء والأدباء وعامة المثقفين، أن يكون نصب أعينهم، ولا يغادر تفكيرهم أو تطبيقهم.

كلمة تخصُّ حياة الرصافي الشخصية:

لقد أثيرت قصص وأخبار يتحدَّث فيها أناس عن الرصافي، تتعلق ببعض أحواله الشخصية من مجون واستهتار وما شابه ذلك، وتتعلق

بأخبار عن وجود زوجة في حياته أو عدم وجودها، وعن طريقة انفصالهما، وهل له منها عقب أو لا؟ وأمثال هذه الأخبار والقصص.

فأمّا ما يتصل بمُجونه ولَهْوه، فهذا لا يتكلّم فيه إلّا مَن كان مُشاركًا له في ذلك -إنْ صدَق- ، وحسبُنا مِن هذا أنه ليس بأحسن حالًا مِمّن يُخبِر عنه بذلك، ولا سيّما في أمرٍ يحتاج في الشرع والقانون إلى شهود وإثباتات على دعواه، وأن تتوفر في الشهودِ وفي الدلائلِ شرائطُ وضوابطُ معلومة.

ولكن نعجَب بعد ذلك كل العجَب أن تُساق هذه الاتهامات الخطيرة في مقالةٍ محسوبة على العلم والتاريخ، بقلم عالم أديب، وهو الأستاذ الدكتور يوسف عز الدين السامرائي، فإنّ الإنسان ليقشعر جلده لهَول ما ذكرَه الدكتور يوسف عن الرصافي! إذ قال: (لم يكن الرصافي يحافظ على الآداب العامة، فإنّه اشتهر بالشذوذ الجنسي، وكان يسكن بين العاهرات من غير أن يبالي...)!! هذا نصّ ما قاله في مقالته: «الرصافي بين الطموح والشذوذ وثورة النفس العارمة» المنشورة بمجلة العربي (عدد ١١٠، عام ١٩٦٨م).

لقد بحثتُ كثيرًا عن ردٍّ على هذه المَقالة، فلم أجد، ولم يكن بحثي بهدف تبرئة ساحة الرصافي، وإن كان ذلك مهمًّا، لكن كان الهدف هو صيانة العلم والتاريخ والأدب من مثل هذه الممارسات التي يمارسها مَن يمارسها باسْم العلم والتاريخ والأدب!

وذكّرَني ذلك بحادثة وقعت في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، فقد اتُّهِم أحدُ الرعيَّة بالزنا، فجاء الشهودُ الأربعة ليشهدوا، فشهد منهم ثلاثة، وأما الرابع فقال: «لقد رأيتُ شيئًا منكَرًا ولكن لم أرَ الزنا»، فأمرَ الخليفة بجلد الشهود الثلاثة، وهم من أهل الثقة والصلاح، و لأنّ هذا الأمر له أصوله وضوابطه وأحكامه، ولأنه يتعلق بأمر عظيم خطير، لم يكن ليتساهَل معهم القضاءُ بشأنه، فجلدَهم أجمعين، إلّا أنّ أحدَهم من شدّة تأكُّده من الأمر قال بعد أن جُلِد: «واللهِ لقد فعلَها»! فهَمَّ عُمَر أن يعيد عليه حدَّ القذف، ولكنّ عليّاً بن أبي طالب (عليه السلام) قال له ما مفاده: إنْ أقمتَ عليه الحدّ لزمكَ أن تقيمه على المتَّهَم بالزنا أيضًا، إشارةً إلى أنّه جعلَ هذا بمثابة أربعة شهود.

فأين هذا مما يجري في ساحتنا العلمية من إطلاق مثل هذه التُّهَم العظائم؟! وليتها كانت في الأسواق والمقاهي والشوارع، لَهان الخَطب، أما أن يصدر هذا من أهل العلم وفي مدوّنات العلم، فهذه هي الكارثة التي تجعلنا ننتفض ونردّ غيرةً على العلم وآدابه، قبل الغيرة على الأعلام؛ لأن العِلم إذا استقامت آدابه، عمَّ نفعُه وبرزَت إنسانيّتُه.

أما ما قيل عن حياة الرصافي الأُسَرية، فكله مبنيٌّ على روايات متناقضة رُوِيَت عنه في مجالسه الخاصة، أو عن طريق الاطلاع على بعض رسائله ذات الأسرار الشخصية؛ فبعضهم يأخذ بها، ويحاول توليفها بناءً على حسن ظنه بالرصافي، وآخَر يأخذها ويطير بها طيرانًا؛ ليؤكِّد للناس صواب طعنه على الرصافي بأنه رجل مستهتر غير مسؤول.

ولعّل أكبر ما أثار عنه هذه الأخبار هو الكتاب الذي طبَعه ونشَره الأستاذ الدكتور يوسف عز الدين السامرائي -نفسه-، فقد قام بإخراج هذا الكتاب، الذي احتوى المذكرات والأحاديث التي أدلى بها الرصافي إلى صاحبه حاكم

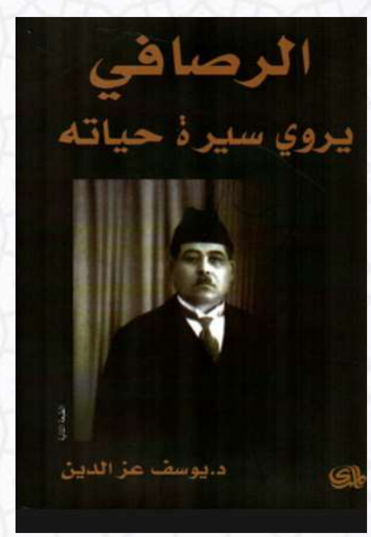
محكمة صلح الفلوجة خالد محمد الحافظ، في أثناءِ السنوات من (١٩٣٨م) حتى أواخر عام (١٩٤٠م)؛ فظلَّ ملازمًا الرصافيَّ يسجِّلُ أحاديثه حتى بعد انتقاله إلى بغداد وانتقال السيد خالد أيضًا إلى وظيفة حاكم تحقيق الكرخ؛ وقد آلت هذه المدونات بعدَ وفاة السيد خالد إلى صديقه الأستاذ عبد الرحمن سليمان الخضير الذي أعطاها بدوره إلى صديقه يوسف عز الدين، كان ذلك في أواخر السبعينات وهو يغادر العراق مختارًا، فظلَّت هذه الأوراق في مكتبته ببغداد، وحين زار ابنُه -الدكتور موئل- بلدَه العراق، أخذَ هذه الأوراق وسلّمها لوالده الدكتور يوسف عز الدين، فقام بتبويبها والتقديم لها ونشْرها بالتعاون مع آخَرين.

ومشكلة هذا الكتاب أنّه مسجَّل من أحاديث يُعَدّ كثيرٌ منها من الأسرار الشخصية، في مجالس شديدة الخصوصية، حيث ادّعى صاحبها السيد خالد أنه شعر بأهمية تدوينها عند عودته إلى بيته عقب تلك المجالس من ذاكرته، أيْ دون علمِ الرصافي وبلا إذْنٍ منه، وهذا لا يجوز أدبًا ولا شرعًا، فهو من خيانة المجالس، ومن عدم صون أمانة أهلها.

فضلًا عن كون السيد خالد ادَّعى أنَّ هذه المجالس كانت ليلية سمَرية يدور فيها الخمر بالكؤوس، ويلعب فيها السُّكْر بالرؤوس!!

وعند النظر في عدد مما ورد في هذه الأحاديث، نلمس فيها التناقض مع بعض أحاديث الرصافي المُعلَنة، والتضارب مع بعض الأحداث التاريخية المعلومة، والغلَط في عدد من أسماء الأعلام.

ولكن الأستاذ المحقق عبد الحميد الرشودي، حكى على لسان السيد خالد ما أخبره به من أمر هذه الأحاديث، وأنّه كان يعرضها على الرصافي، وأنه كان يستملي الرصافي أحيانًا. وهذا الزعم لا نقدر على التشكيك فيه، ولكنه محمولٌ على الأحاديث التي كانت بعد مغادرة الرصافي الفلوجة، حيث استقرّ في الأعظمية ببغداد، وكانت مجالسه هناك أشبه ما تكون بـ(المجالس العامة)، وكان السيد خالد أحد مرتاديها. فهذا الزعم لا ينطبق على أحاديثه الخاصة في الفلوجة؛ لأنه صرَّح هناك بأنه كان يدوّنها من ذاكرته في بيته عقِب تلك المجالس، ولأن من المستحيل أن يكون الرصافي يوافق على نشرها، فضلًا عن أن يسلِّم بصحَّة كلِّ ما وردَ فيها.



ولهذا فإنّ هذه الأحاديث التي دوّنها السيد خالد في بغداد عقِب مغادرة الفلوجة، قد عُنيَ بها الأستاذ عبد الحميد الرشودي، ونشرَها في جريدة «الاتحاد» الأسبوعية، الصادرة عن اتحاد الصناعات العراقي، وذلك في خريف عام (١٩٨٩م).

ويبقى الأساس الذي يُعتمَد في أخبار الرصافي وسيرته، هو ما جاء في الوثيقة التي دوّنَها بخطّه وبعث بها إلى الشاعر المؤرخ خير

الدين الزركلي سنة (١٩١٢م)، يوم كان الرصافي في تركيا عضوًا في البرلمان العثماني. وكذلك الوثيقة الأخرى التي كانت حوارًا محرّرًا أجراه الأستاذ كامل الچادرچي مع أستاذِهِ الرصافي، وسلَّم نسختَه المخطوطة إلى المجمع العلمي العراقي، ونُشر فيما بعد غيرَ مرّة. فمَن يُطالع هاتين الوثيقتَين يجدهما متوافقتين إلى حدِّ التطابق، على الرغم من بُعد العهد بين تاريخَي تدوينهما، الفرق الذي يكاد يكون وحيدًا بينهما هو إسهابه وتفصيله في حواره مع الچادرچي، بما يمكن أنْ يكون شرحًا لِمَا أجمَلَه وأبهَمَه في وثيقَته المختصَرة المُرسلة إلى الزركلي، مع إضافات أخرى، لا سيما ما يتصل منها بالحقبة التي تلَت تاريخ تدوينه تلك الوثيقة المختصَرة.

كلمة أخرى تخصُّ مواقفه السياسية:

يتشبّث أحدُهم بخبرٍ نشَرَته إحدى الصحُف عن الرصافي أنّه عاد إلى العراق بعد سقوط الحكم العثماني على متن سفينة تُقِلّ بعض شخصيات الإنكليز الذين كان لهم تدخُّل في شؤون العراق والمنطقة، فيحاول ربط هذا الأمر بوجود علاقة بين الرصافي ومن المحتلّ البريطاني! هكذا خبط عشواء! دون أن يبيّن تفاصيل تلك الرحلة وسبب وجوده على متن تلك السفينة وكيف تعرّف إلى هؤلاء الإنكليز؟؟؟ ولا أدري هل اطَّلَع على الحوار الشهير بين الچادرچي والرصافي؟ فكلُّ مَن طالعَه عرَف تفاصيل هذا الحدَث من دون أن يضطر إلى هذه الأوهام التي وقع فيها هذا المشكِّك وحشَد لها بعض الشَّبهات الأخرى، في حين لا يمكن أن يتوافق هذا الاتهام أو التشكيك بحالٍ من الأحوال مع واقع الرصافي الذي كان يرفض كل تعاون مع العدو الأجنبي، حتى أنه قال في حواره مع الچادرچي ما نصّه: (كنت أعطف على كل جماعة تطالب بحقوق العرب، على شرط ألّا تستمد قوتها من الأجانب)، وهذا لم يكن شعارًا فضفاضًا، بل هو عقيدة راسخة لم يتزحزح عنها ولم يخالفها في تطبيقاته، فها هو مثلًا يناصر إحدى الجمعيات في بيروت كان قد حبَّذ بعض أعمالها، فنظَم قصيدة في نصرتهم بعنوان «في معرض السيف» دعا فيها إلى النهضة العربية، ولكنه بعد أن اطلع على منهاج تلك الجمعية وعلِم أنّ لهم اتصالًا بالأجانب، نظَم قصيدته الأخرى التي عنوانها «ما هكذا...» فردَّ بها عليهم وفنَّد آراءهم التي شمّ منها رائحة التفرقة.

لم يكتفِ المشكِّك المشار إليه بالحادثة المتقدِّم ذِكرها، بل وصفَ جريدة «الأمل» التي أنشأها الرصافي بأنّها: (تقف مع الإنكليز وتمتدح الاحتلال وتهاجم مَن يقف ضده)!!! ومَن طالَع الجريدة لا يجد فيها شيئًا من

معروف الرصافي

إذا استحالتْ سجايا القوم فاسدةً   فليس ينفعهم علم ولا عَلَم
وليس يَختلُّ حبلُ الملك مضطرباً   إلا إذا اختلّتِ الأخلاق والشِّيَمُ
لولا سجايا على حُبِّ العلا جُبلتْ   ما سادت الناسُ لا عُربٌ ولا عجم
لاخيرَ في العيش يغدو فيه صاحبه   وأنفه باحتمال الذلّ مُزدَلم
ما بالُ قومي على الإرهاق قد صبروا   كأنّ أَشْهُرَ قومي كلها حرمُ

ذلك، حتى النصّ الذي أورده المشكّك ليس فيه ما يدل على ذلك، بل فيه رؤية سياسية كان يراها الرصافي ومَن معه، تتوضَّح أكثَر في هذا النصّ الذي قاله في إعلان ترشُّحه لعضوية مجلس الشعب التأسيسي، إذْ قال: (إنني أعتقد أن للإنگليز اليوم منفعة اقتصادية في بلادنا، وأرى من الواجب علينا أن نُعيّنَها تَعيُّنًا واضحًا، وأن نحدِّدَها تحديدًا بيّنًا، بحيث لا تكون مُخِلَّة باستقلالنا، ولا مُجحِفة بمنفعتنا. ولا ريب أن المنافع الجارية بين الأمم إذا لم تكن متقابلة على وجه التبادل، كانت ضربًا من التحكُّم الذي تأباه أمّة على غيرها. وهكذا يلزم أن تكون مناسباتنا مع الإنگليز قائمة على تبادل المنفعة). هذا نص كلامه الذي قاله في جريدة «الاستقلال» في عددها (١٩٣) بتاريخ: (٣ آب ١٩٢٣م).

ولكن هل تعاملت الحكومة آنذاك مع الإنگليز على النحو الذي كان يراه الرصافي وأمثاله من الأحرار؟ أو بعبارة أخرى: هل سمح الإنگليز بمثل هذا الأمر، أم أنهم أرادوه منذ البداية «ضربًا من التحكُّم»؟ ولهذا كان الرصافي من أنصار الثورة ضد الإنگليز فيما بعد.

هذا هو الرصافي على حقيقته من دون أن نضطر إلى أن نتأوَّل له أو نجتهد في إيجاد المعاذير لتبرئته، هذا هو الرصافي الذي اتهمه المشكِّك نفسُه في حادثةٍ أخرى أنه كان من أعضاء جمعية الاتحاد والترقّي، وأنّه وقفَ معها حتَّى النفَس الأخير! وأنّ مكانته هذه التي وصلَ إليها في مجلس المبعوثان العثماني، هي من الأسباب التي جعلته يطمع في المناصب ويطمح إلى تسنّم الحكم بعد عودته إلى العراق!

وكل هذا كلام لا زمام له ولا خطام، فالرصافي لم يكن يومًا عضوًا في جمعية الاتحاد والترقي -كما صرّح هو بذلك-، ولم يكن واقفًا معها حتى النفَس الأخير، بل إنه كان يعارض بعض آرائها وسط البرلمان العثماني ذاك، كما كان يوافقهم في أشياء، وهذا كله مزبور في حوار الچادرچي معه.

أما دعوى أنّ ثورتَه على الحكومة وهجاءَه الوضعَ السياسي كان من أجل حرمانه من السلطة والمناصب المرموقة، فهذا تفتيش عن دواخل النفوس التي هي من علم علاّم الغيوب، وهي دعوى مخالفة لواقع حال الرصافي الذي كان يأبى الظلم والفساد والكذب والخداع والرياء؛ فكيف تكون نفسيته كنفسية مَن أعلنَ الثورة عليهم؛ لاستبدادهم وفسادهم؟!



ولِمَ لا نَسوق الأمر على وجهه الذي يتَّسق مع حال الرصافي ودعوته؟ كان الأجدر أن يُقال بأنَّ الرصافي كان يرى في نفسه الأهلية التي توجب على ذوي الحكم أن يجعلوه في المكان الذي هو أهله، فإن لم يفعلوا فما ذلك بالأنموذج الأوحَد لِظلمهم واستبدادهم!

ولهذا أبتْ كرامته وأبى كبرياؤه أن يُجعل في الهامش، كما يأبى كلُّ عزيزٍ كريم.

لا أنْ يُساق هذا الأمر مَساق الاتهام والتسقيط وتشويه السمعة، ورميه بما يخالف الآداب العامة، فنزعُم أيضًا أنّ مخالفته هذه كانت سببًا في عدم إسناد أي عمل حكومي مرموق إليه! وكأنّ رجال الحكومات المتعاقبة كانوا ملائكة يمشون على الأرض!

هذا الذي أشيرُ إليه من تشكيكات واتهامات هو جزءٌ من تشكيكاتٍ أخرى واتهاماتٍ تترى، حشدَها الأستاذ الدكتور يوسف عز الدين السامرائي، في مقالته التي عنوَنها بـ«الرصافي بين الطموح والشذوذ وثورة النفس العارمة» ونشَرها في مجلة العربي (العدد ١١٠، عام ١٩٦٨م).

كلمة ثالثة تخصُّ ديانة الرصافي:

الرصافي صاحب مظلومية، وحُقّ لنا أنْ نُنصفَه، ولا نَنساقَ وراء الّذين أسقطوه في حياته وبعد وفاته وحاربوه بشتى الوسائل.

ولقد كان صاحبُه العلاّمة محمد بهجة الأثري يقول: (الرصافي سمحٌ طيّب القلْب حسَن المعشَر، لكنَّه يَضِيق لأمرَين ويحتدُّ فيهما فلا يَغفِر لمَن يَقولهما: الطعن في دينه واتهامه بالكفر، والطعن في شاعريته وفحولته في الشعر).

لقد كان هذان الأمران أكثر ما يثير الرجل الساكن المهيب الواسع الصدر «معروف الرصافي»، فهو فيما سواهما ليّن هيّن، حتى لو استُغضِب فغضِب، فإنه سرعان ما ينسَى ويصفَح.

هذا ملخَّص ما أخبرَ به عنه العلاّمةُ الأثري في جزء من الحوار المطوَّل الذي أجراه معه الأستاذُ حميد المطبعي، والذي نشرَه ضمن سلسلته: أعلام العراق في القرن العشرين.

وعلى الرغم مما جرى بين الأثري والرصافي من ردودٍ بشأن مسائل متعلقة بالدين، إلا أنها لم تحمل الأثري على اتهام الرصافي بشيءٍ مما كان يُتَّهَم به من قِبَل كثير من الطائفيين والحسّاد ومَن اغترَّ بدعاويهم، فلا رماه بالزندقة، ولا بالكفر والردَّة، ولا بنحو ذلك مما لاكته الألسنة، بل بقيت علاقتهما طيبة. وقد كان كِلا الرجُلَين ممن لقي عناية زائدة من شيخهما الذي لازَماه: العلاّمة الكبير محمود شكري الآلوسي.

لقد كانت للرصافي آراء خاصة في فهم الدين، ولعلَّ أخطرَها ما يتعلق بماهية الوحي والرسالة والنبوة، بدأت بَوادرها في عشرينات القرن الماضي، ولكنْ تشكّلت فيما بعدُ أفكارُه فيها، وأودعَها كتابه الشهير «الشخصية المحمدية» الذي لم يتمكن من طباعته في حياته، وتأجّل ظهوره كاملًا أمام الملأ أكثر من نصف قرن من الزمان، مع أنّه قد نُشرت بعض فصوله وملخَّصاتٍ عنه بعد وفاته بسنوات قلائل.

وقد كانت أفكارُه التي أودعَها في هذا الكتاب معلومةً لدى الوسط القريب منه، واشتهرت عنه، بل إنّها نوقشت معه على صفحات المجلات والجرائد -من مثل مجلة «الرسالة»-، ولقي الرصافي من وراء ذلك حملات تشويهٍ لِسُمعته، حتى وصل الأمر بخصومه إلى رميه بالموبقات لتسقيطه وإهدار سمعته، ولكن العجَب كل العجَب من أنْ تتردَّد هذه التُّهم على ألسنة بعض أهل العلم والأدب!

الرصافي صاحب جراءة وإقدام على ما ليس

مألوفًا لدى المجتمع المتخلِّف، ولم يكن يعالج التخلُّف بالمجاملات، بل دعا إلى ثورة شاملة عليه، ومارسَها بنفسه، حتى تطرَّق إلى كثير من الأمور؛ لإعادة النظر فيها من أجل خدمة ثورته على مظاهر الجهل والتخلّف والتفرُّق، فنراه تارةً يعيد النظر في مفهوم الصدق والكذب، وتارةً أخرى يعيد النظر في العلاقة الواجبة بين الخالق والمخلوق، وقد تمظهرَت لديه في قضية «وحدة الوجود»، ويعيد النظر في قواعد الرواية والتاريخ... إلى غير ذلك.

إنَّ مشكلة الناس مع الرصافي أنَّه كان متحرِّرًا من قيودهم، وأنّه فكَّر واجتهَد خارجَ الصندوق.

أقول كلَّ هذا مدافعًا عنه وعن مبدئه وهدفه، ولكنْ حين أتطرَّق إلى القضايا التي طرَقَها، فإنني أقول: لقد زلَّ زللًا كبيرًا في تصوُّر بعضها على حقيقتها. ولكن من واجبنا أن نردَّ على زلّاته وأغلاطه بالعلم القاطع والبرهان الساطع، هادفين إلى إنقاذ شبابنا المثقف اليوم من أن ينزلق في مثل هذه المزالق، كما نهدف إلى قطع الطريق على دعاة الإلحاد من استغلال كلامه وتوظيفه في سياق منظومتهم الفكرية التي لا يمكن أن تندرج فيها آراء الرصافي.

أمّا ما سوى هذا الأسلوب في الردِّ فإنه سيكون منكرًا من القول وزورًا.

والحكم على الرصافي بالنهاية البائسة والخروج عن الدين لن ينفعنا بشيء، ولسنا مكلَّفين به، إنما الذي ينفعنا هو إحقاق الحقّ بحقّ، وردّ الباطل من غير باطل.

وكم هي جميلة كلمة الأستاذ الأديب أحمد حسن الزيات، حين قال عن الرصافي: (أما عقيدته فالأمر فيها لله لا للناس). قال هذا في ختام مقاله التأبيني الذي نشَره في مجلّته «الرسالة» (العدد ٦١٢)، والذي لم يستطع فيه أن يكبح جماح خصومته المعروفة للرصافي حتى وهو يُؤَبِّنه، مستعملًا حلاوةَ أسلوبه النثريّ لتدوين بعض أحوال الرصافي بصورة مشوَّهة، فيها طعنٌ بالِغ، تضمَّن طعنًا في نسَبه، وفي أخلاقه، وفي ديانته، حتى قال عنه بأنه (مسلم اللسان جاهليّ القلب)! وقال: (أدركه الفقر والمرض والموت دون أن يجد آسيًا من إيمانه)! فليت شِعري ماذا تركَ الزيّاتُ للهِ سبحانَه في الحكْم على دين الرصافي وإيمانه وقلبه؟!

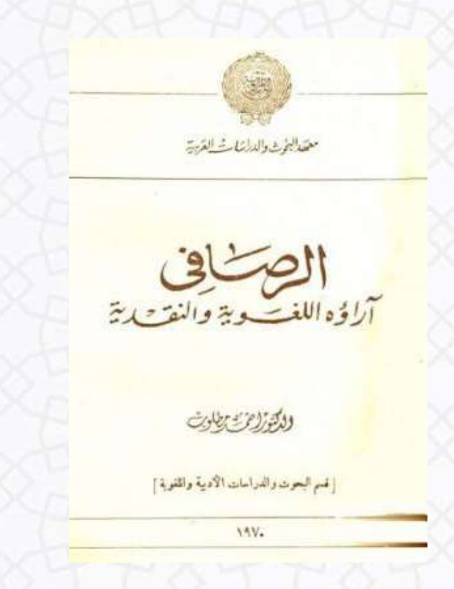
ألفاظ التكفير والإخراج من الدين ظلّت تلاحق الرصافي ملاحقة أثّرت في نفسيَّته، حتى جعلته يكتب ما كتَب في وصية موته بخطِّ يده، التي كان قد أودَعها لدى صديقه الحميم (الأستاذ محمود السِّنَوي) السياسي والمتصرِّف والمحامي المعروف، وطلبَ إليه ألّا يذيعها إلا بعد وفاته، ففعَل السِّنَوي ما طلبه الرصافي، وناولَ الوصيةَ تلميذَ الرصافي وراويةَ شِعره الأستاذَ القدير مصطفى علي، فقرأها على جمهور المُشيِّعين، وقد أودعَها في كتابه الأول عن الرصافي (ص٤٣-٤٤)، فمما جاء فيها:

(أراهم يهيجون عليَّ العوامّ باسْم الدِّين، ولا أظنُّهم يتركونَني حتَّى بعد موتي، وليس لي مَن ألتجئ إليه سوى الله... كلُّ مَن اعتدى عليّ في حياتي فهو في حِلٍّ منّي، وإن كان هناك مَن اعتديتُ عليه فهو بالخيار إن شاء عفا عني، وإلا قضَى بيني وبينه الله الذي هو أحكم الحاكمين. أنا -ولله الحمد- مسلم، مؤمن بالله وبرسوله محمد بن عبد الله، إيمانًا صادقًا لا أرائي فيه ولا أداجي، إلا أني خالفتُ المسلمين فيما أراهم عليه من أمور يرونها من الدِّين وليست هي منه إلا بمنزلة القشور

من اللباب، ولا يهمُّني مِن الدِّين إلا جَوهره الخالص، وغايته المطلوبة التي هي الوصول إلى شيءٍ من السعادة في الحياة الدنيوية الاجتماعية والحياة الأخروية ما أمكن الوصول إليه من ذلك، بترك الشرور، وعمل الصالحات، وكلُّ ما عدا ذلك من أمور الدين فهي وسيلة إليه، وواسطة له -ليس إلا-).

وكأنّ الرصافي بهذه العبارات المختصرَات أراد أن ينسف كل ما قيل فيه من افتراءات، ممن زعم بأنه لا يؤمن بالبعث والحساب، وأنه لا يعترف بنبوة محمّد عليه الصلاة والسلام، وأنه يلحد في الله تعالى، وأنه لا يعمل الصالحات ولا يترك الشرور.

ومن إنصاف العلاّمة الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب، (رحمه الله) أنه تطرَّق إلى هذا الموضوع في أوَّل كتابه «الرصافي وآراؤه النقدية واللغوية» فنفى عنه شبهة الإلحاد، وردَّ على مكفِّريه، وأثبتَ إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، بأبْلَج الحُجج، فاستغرق كلامه في ذلك من أوَّل مقدِّمته حتى الصحيفة رقم (١١)؛ فهكذا هي أخلاق العلماء الأبرار، وهذا هو موقفهم إتجاه الأعلام الأحرار.



إنّ كثيرًا ممن سعوا في تكفير الرصافي ورميه بالزندقة، قد ردَّ عليهم الرصافي في حياته وهجاهم وعرّاهم، وواجههم مواجهة البطل، وقد ذكرَ تلميذه الأستاذ مصطفى علي -في كتاب عنه (ص٤٨-٥٢)- أمثلةً متعددة على ذلك، لا يتسع المقام لسردها، وإنما الشاهد الذي أريد أن أصل إليه هو أنّ الرصافي قد شابَهَ أبا العلاء المعرّي في اتهام الناس له في دينه، وردّه عليهم، وأنهم ما فعلوا ذلك إلا لأنه قد خالفهم فيما نسبوه إلى الدين مما ليس هو منه، بل إن الرصافي اقتبس عنوان كتاب المعري في الردّ على خصومه الذي أسماه «زجر النابح»، فسمّى قصيدته على منواله: «زجر النوابح»، فقال فيها:

لقد مزّقوا أحكام كل ديانةٍ
وخاطوا لهم منها ثياب رياءِ
وما جعلوا الأديان إلّا ذريعةً
إلى كلّ شغبٍ بينهم وعداءِ

ختامًا أقول: إنّ المرء ليَعجب عجَبًا مريرًا من صنيع بعض أهل العلم والأدب، الذين ما انفكّوا يوجّهون تلامذتهم وقرّاءَهم إلى المنهجية السليمة في البحث والدراسة والتحليل، وإذا بهم يتناسون هذه المنهجية، إمّا لِعارض الهوى، أو لِنقصٍ في الاطلاع، أو لِقلّة إيمانٍ بمبادئ ما يَدْعون إليه من أخلاقيات البحث العلمي، أو ربما لحماسةٍ يجدونها في نفوسهم إلى موضوعٍ يكون مَثار جدل بين الناس! أو لأسباب لا يمكن التكهُّن بها، فربّما يكون بعضُها مما يجعلنا نلتمس لهم العذر فيما أخطؤوا فيه، ولكنّ خطَأهَم سيبقى يسمَّى خطأً، ولأجل ذلك كتبتُ هذه الصفحات. والله من وراء القصد.